مجلة افاق للعلوم
المجلد 05 / العـــدد: 03(2020) ص 246- 258
تاريخ الاستلام: 2020/04/12 تاريخ القبول: 2020/05/01

قَضِيَّةُ الطَّبْعِ وَالصَّنْعَةِ وَتَجَلِّيَّاتُهَا فِي النَّقْدِ الأَدَبِيِّ القَدِيمِ

The issue of pedestal, maintenance and its appeal sits in the old literature

عبد الحميد معيفي *
hamidmaifi17@gmail.com
جامعة الطارف (الجزائر)

طارق زيناي
zinaitarek@gmail.com
جامعة أم البواقي (الجزائر)

ملخص:

تعدُّ قضية الطبع والتكلف أو الصنعة من القضايا النقدية التي حظيت باهتمام الفكر الإنساني في كل أمة من الأمم؛ لتعلقها بمفهوم الشعر وصناعته، وقد انتقل هذا الاهتمام إلى النقاد العرب القدامى، ذلك أنَّ الطبع في الغالب من أهم خصائص وسمات الشعرية القديمة، وأنَّ التكلف- إذا استثنينا مدرسة زهير وأتباعه - يعدُّ السمة الغالبة على المحدثين أو المولدين، المخالفين عمود الشعر، الذي انتهجه القدامى وساروا على أسسه وقواعده، ويهدف هذا المقال إلى كشف محل إعراب هذه القضية من النقد العربي القديم، وكيف تم تناولها من طرف النقاد على اختلاف رؤيتهم النقدية، وخلفياتهم الثقافية، وقد توصل المقال إلى جملة من النتائج أهمها؛ أن الشعرية العربية القديمة قد زاوجت بين مدرستين؛ إحداهما تقوم على الطبع، وأخرى على التكلف، وقد سارتا جنبا إلى جنب منذ العصر الجاهلي، أن الدرس النقدي القديم قد تناول هذه القضية في إطار تحديد المسارات الفنية للشعرية العربية، أن النقاد مع اتفاقهم على أهمية الطبع إلا أنهم اختلفوا بعد ذلك في أهمية الصنعة والتصنع في العملية الإبداعية.

كلمات مفتاحية: الطبع؛ الصنعة؛ النقد؛ الأدب؛ القديم.

Abstract:

The issue of printing, cost or workmanship is one of the critical issues that has received the attention of human thought in every nation, because of its attachment to the concept of poetry and its manufacture, and this attention has been transferred to the old Arab critics, because printing is mostly one of the most important characteristics and features of ancient poetry, and that the If we exclude Zuhair's school and his followers, it is the dominant feature of the modernists or the generators, the violators of the poetry column, which was adopted by the old and marched on its foundations and rules, and this article aims to reveal the place where this issue is expressed from the old Arab criticism, and how The article reached a number of conclusions, the most important of which was that the old Arabic poetry had been paired with two schools, one based on nature, and another on cost, and they had gone hand in hand since the Islamic era, that the old critical lesson dealt with this issue in the context of determining the artistic tracks of Arabic poetry, that the critics, while agreeing on the importance of printing, then differed in the importance of workmanship and craftsmanship in the creative process.

Keywords: Printing; workmanship; criticism; literature; the old.

المؤلف المرسل: طارق زيناي ، **الإيميل:** zinaitarek@gmail.com

. مقدمة:

لعلَّ الباحث في الدرس النقدي القديم لا يطالع كتابا إلا ويجد إشارات لقضية الطبع والصنعة، مضافة إلى الشعر أو الشعراء، ولعلَّها لم تذكر في الغالب عندهم إلا في معرض الحديث عن قضية أخرى؛ وهي قضية الخصومة بين القدماء والمحدثين، وأيضا قضية عمود الشعر بصفة أقل، من هذا المنطلق سيحاول هذا المقال تسليط الضوء على هاته القضية، محاولا الإجابة عن الإشكالية الآتية؛ وهي كيف تجلت هذه القضية عند النقاد القدامى؟ وهل الاختلاف فيما بينهم حولها معتبر ؟ أم أنه يدخل ضمن اختلاف التنوع لا التضاد ؟ وهل بالإمكان ترجيح موقف على آخر في هذه القضية ؟

أمَّا أهم الفرضيات التي يطرحها هذا المقال :

- حقيقة مفهوم الطبع في النقد القديم، وما يقدمه هذا المفهوم من تحديدات للصناعة الشعرية.
- تجليات مفهوم التكلف ودوره في إرساء دعائم الشعرية العربية منذ العصر الجاهلي.
- تقريب وجهات النظر بين النقاد القدامى فيما يخص ثنائية الطبع والصنعة.

ويستهدف المقال تحصيل الأهداف التالية :

- تحقيق مناط الخلاف بين أنصار الطبع وأنصار التكلف.
- بيان وجهات نظر كل واحد منهما.
- تحديد أوجه خصوصية كل من الطبع والصنعة ودورهما في الصناعة الشعرية بمنظور النقاد القدامى.

وقد اعتمد المقال منهجا وصفيا تحليليا؛ لأنه الأقدر على مقاربة مواضيع تنحو منحى تنظيريا كموضوعنا، هذا من ناحية ومن ناحية ثانية لأننا لا نكاد نقدم جديدا في قضايا قتلت بحثا في الدرس النقدي القديم، اللهم إلا لم شمل ما تفرَّق في كتب النقد القديم، ووصفها وتحليلها وفق سياقاتها النقدية الواردة فيها.

1 - تَجَلِّيَّاتُ مَفْهُومِ الطَّبْعِ فِي النَّقْدِ القَدِيمِ :

إذا كان الطبع هو السجية التي طبع الله عليها الإنسان، فإن الأدب المطبوع لا يخرج عن كونه ما صدر عن فطرة سليمة وملكة صافية وخاطر عفويٍّ، دون تكلفٍ أو تعملٍ، فالطبع بهذا المفهوم ليس صفة مرتبطة بزمن دون زمنٍ، بل هو ممكن التحقق في أي أحدٍ، إذا توفرت فيه شروطه المرتبطة بالملكة الإنسانية والبيئة والاستعدادات النفسية لذلك، يقول القاضي الجرجاني (ت392هـ) في تفاوت الناس في هذا : « وأنت تعلم أن العرب مشتركة في اللغة واللسان، وأنها سواء في المنطق والعبارة، وإنما تَفضُل القبيلةُ أختها بشيء من الفصاحة. ثم تجد الرجل منها شاعراً مُفْلقاً، وابنَ عمه وجار جَنابه ولصيقَ طُنُبه بكيئاً مفحَماً؛ وتجد فيها الشاعرَ أشعرَ من الشاعر، والخطيبَ أبلغَ من الخطيب؛ فهل ذلك إلا من جهة الطبع والذكاء وحدّة القريحة والفِطنة! وهذه أمور عامة في جنس البشر لا تخصيص لها بالأعْصار، ولا يتّصف بها دهر دون دهر » [1]

إنَّ المطالع لما كتبه النقاد القدامى يدرك أنهم لم يتوصَّلوا لمفهوم منضبط وتصور صحيح صريح يدل على المقصود منه لمصطلح الطبع، حيث نجد أن قصارى ما جاء عندهم هي توصيفات عامة، تفتقر إلى الدقة والانضباط، وفيما يأتي نشير إلى بعض ما ورد عنهم :

فقد أشار ابن قتيبة (ت276هـ) إلى المطبوعين من الشعراء بقوله : « المطبوع من الشعراء من سمح بالشعر واقتدر على القوافي، وأراك في صدر بيته عجزه، وفي فاتحته قافيته، وتبيّنت على شعره رونق الطبع ووشي الغريزة، وإذا امتحن لم يتلعثم ولم يتزحَّر » [2]

وعنده أن المطبوعين من الشعراء يختلف طبعهم قوة وضعفا لاختلاف الموضوعات الشعرية؛ فمنهم من يجيد في غرض، ولا يجيد في غيره، والشواهد عن المطبوعين في كل العصور في هذا معروف، يقول في هذا : « والشعراء أيضا في الطبع مختلفون: منهم من يسهل عليه المديح ويعسر عليه الهجاء، ومنهم من يتيسّر له المراثي ويتعذّر عليه الغزل،وقيل للعجَّاج: إنك لا تحسن الهجاء؟ فقال: إنّ لنا أحلاما

تمنعنا من أن نَظْلِمَ، وأحسابًا تمنعنا من أن نُظْلَمَ، وهل رأيت بانياً لا يحسن أن يهدم ؟ » [3]، لكن ابن قتيبة يعلِّق على قول العجاج السابق مخطِّئا له، ذاكرا نماذج من فحول الشعراء لا تحسن القول في بعض الأغراض : « وليس هذا كما ذكر العجاج، ولا المثل الذي ضربه للهجاء والمديح بشكل؛ لأنَّ المديح بناءٌ والهجاء بناءٌ، وليس كلُّ بان بضرب بانيا بغيره، ونحن نجد هذا بعينه في أشعارهم كثيرا، فهذا ذو الرّمّة، أحسن الناس تشبيها، وأجودهم تشبيبا، وأوصفهم لرمل وهاجرة وفلاة وماء وقراد وحيّة، فإذا صار إلى المديح والهجاء خانه الطبع، وذاك أخَّره عن الفحول، فقالوا: في شعره أبعار غزلان ونقط عروس! وكان الفرزدق زير نساء وصاحب غزل، وكان مع ذلك لا يجيد التشبيب» [4]

وقد أجمل المرزوقي(ت 421هـ) أمارات الطبع في الشعر فقال : إنَّ « الدواعي إذا قامت في النفوس، وحرَّكتِ القرائح، أعملت القلوبَ، وإذا جاشت العقول بمكنون ودائعها، وتظاهرت مكتسبات العلوم وضروريَّاتُها، نبعت المعاني ودرَّت أخلافها، وافتقرت خفيَّات الخواطر إلى جليَّات الألفاظ، فمتى رُفِضَ التكلُّف والتعمُّل، وخلِّي الطبع المهذَّب بالرواية، المدرَّب في الدراسة، لاختياره، فاسترسل غيرَ محمول عليه، ولا ممنوع مما يميل إليه، أدَّى من لطافة المعنى وحلاوة اللفظ ما يكون صفوا بلا كدرٍ، وعفوا بلا جهدٍ، وذلك هو الذي يسمَّى ((المطبوع)) » [5]

فالشعر المطبوع عند المرزوقي هو ما يأتي على السجية والعفوية، ولكنه لا يجعله قرينا للملكة والموهبة والاستعداد الفطري - كما عند غيره - بل إنه عنده مرتبط بكثرة رواية الشعر؛ التي تهذبه، وبالدُّربة والدراسة والممارسة؛ التي يستقيم بها الشعر ويشتدُّ عوده، ولعل هذه النظرة الجديدة في مقاربة معنى الطبع نجده كذلك عند القاضي الجرجاني، في قوله : « ومِلاكُ الأمر في هذا الباب خاصة تركُ التكلّف ورفضُ التعمّل والاسترسالُ للطبع، وتجنّب الحمْل عليه والعنف به؛ ولستُ أعني بهذا كلّ طبْع، بل المهذّب الذي قد صقله الأدب، وشحذَتْه الرّواية، وجلَتْه الفِطنة، وأُلْهِمَ الفصل بين الرديء والجيد، وتصوّرَ أمثلة الحسن والقبح » [6]، ولهذا نراه يقول بعد أن ساق بيتي امرئ القيس وعدي بن الرقاع في تشبيه عيني المرأة بعين الظبي : « وكلاهما خالٍ من الصنعة، بعيدٌ عن البديع؛ إلا ما حسُن به من الاستعارة اللطيفة، التي كسته هذه البهجة » [7]

ونجده كذلك عند أبي هلال العسكري (ت395هـ) في كلامه عن صناعة الخطابة نقلا عن أبي داود قوله : « رأس الخطابة الطّبع، وعمودها الدّربة، وجناحها رواية الكلام، وحليها الإعراب، وبهاؤها تخيّر الألفاظ » [8]

يعدُّ حازم القرطاجني (ت684هـ) من النقاد القلائل الذين تمكنوا من الوصول إلى تعريف لا بأس للطبع، وذلك في قوله : « النظم صناعة آلتها الطبع، والطبع هو استكمال للنفس في فهم أسرار الكلام، والبصيرة بالمذاهب والأغراض التي من شأن الكلام الشعري أن ينحى به نحوها؛ فإذا أحاطت بذلك علما قويت على صوغ الكلام بحسبه عملا... » [9]

ومن الملاحظ أن القرطاجني قد ربط بين الطبع والصنعة وبين صناعة الشعر، حيث أنهما ضروريان لمقومات هذه الصناعة؛ والتي تنقسم عنده إلى مهيئات وأدوات وبواعث، والمهيئات بدورها تحصل من جهتين :

أولا : « النشء في بقعة معتدلة الهواء، حسنة الوضع، طيبة المطاعم، أنيقة المناظر، ممتعة من كل ما للأغراض الإنسانية به علقه » [10]، وهذا الوجه يسهم في صقل موهبة الشاعر، وقد فصل القرطاجني أهمية هذا المؤثر الخارجي في الشاعر بقوله : « وكان المهيء الأول موجها طبع الناشئ إلى الكمال في صحة اعتبار الكلام محسن الروية في تفصيله وتقديره ومطابقة ما خارج الذهن به إيقاع كل جزء منه في كل نحو ينحى به أحسن مواقعه وأعدلها حتى يكون حسن نشء الكلام مشبها حسن نشء المتكلم به، وقد تكون النشأة حسنة على غير هذا النحو، وذلك بأن تستجد الأهوية للناشئ وترتاد له مواقع المزن ومواضع الكلإ والنبات الغض، ولا يخيم به في الموضع إلا ريثما يصوح كلأه ويغيض ماؤه، فإن الطباع الناشئة أيضاً على هذه الحال، وإن لم تكن في الأقاليم المعتدلة، جارية مجرى تلك في سداد الخاطر والتنبه لما يحسن هيآته اللفظية والمعنوية » [11]

ثانيا : « الترعرع بين الفصحاء الألسنة المستعملين للأناشيد المقيمين للأوزان » [12]، وهذا المهيئ يأتي ثانيا في الأهمية وبه يحصل الشاعر

فصيح الكلام، ويتمرس على إقامة الأوزان والأعريض في شعره.

فالطبع في نظر حازم مصدر ضروري في صناعة الشعر، ولكن مع ذلك فالشعر عنده ليس مجرد طبع فقط، وإنما كلٌّ مركبٌ من قوانين أساسية تشكل بمجموعها ما يسمى بالصناعة الشعرية أو العلم بالشعر.

يقول عنه مُحَمَّد زغلول سلام : « الطبع يثور ويهدأ، كالنار تشتعل وتخمد، وإنما يبعثها ويثيرها مثيرات تتعدد، ومواقف تتباين حسب نوع الطبع وجبلته، واستجابته للأشياء والأحداث » [13] وكأنه يشير في ذلك إلى قول ابن الأثير - الذي سنشير إليه لاحقا - في تشبيهه الطبع الكامن في نفس صاحبه بالنار الكامن في الحجر؛ التي تخرج بقدر الزناد.

يقول شوقي ضيف في تعريفه لأهل الصنعة: « هم الذين كانوا ينحرفون عن هذا العمود إلى التنميق والتأنق، أو إلى الإغراب والتكلف»[14]

2 - تَجَلِّيَاتُ مَفْهُومِ الصَّنْعَةِ فِي النَّقْدِ القَدِيمِ:

إذا كان الأدب صناعة كسائر الصناعات الأخرى، فلا شك أن الأدباء إذا عالجوا ذلك وبذلوا فيه الجهد والفكر والروية والتعمَّل، فإن أدبهم حينذاك سيكون مصنوعا، يقول ابن قتيبة مبينا حقيقة التكلف والتصنع في الشعر: « فالمتكلّف هو الذي قوّم شعره بالثّقاف، ونقّحه بطول التفتيش، وأعاد فيه النظر بعد النظر،كزهير والحطيئة، وكان الأصمعيُ يقول: زهير والحطيئة وأشباههما (من الشعراء) عبيد الشعر، لأنهم نقَّحوه ولم يذهبوا فيه مذهب المطبوعين، وكان الحطيئة يقول: خير الشعر الحوليُّ المنقح المحكّك، وكان زهير يسمّي كُبْرَ قصائده الحوليّات » [15]

لقد أشار القدماء إلى مفهوم الصنعة أو التكلف، ولكنهم لم يشيروا إلى تحديد دقيق، ولعلَّ السبب يرجع إلى وضوحه عندهم، وضوحا لا يحتاج إلى بيان، أو لأنه يأخذ عندهم أكثر من مفهوم، لكنه - كما سنلاحظ- لا يدخل في باب اختلاف التضاد، بل في اختلاف التنوع، وفيما يلي سنشير إلى حضور هذا المفهوم عند القدامى:

وقد تنبه الشعراء القدماء لأهمية صناعة الشعر فقال في ذلك سويد بن كراع يذكر تنقيحه شعره[16]:

أَبِيتُ بِأَبْوَابِ القَوَافِي كَأَنَّمَا	أُصَادِي بِهَا سِرْبًا مِنَ الوَحْشِ نُزَّعَا
أُكَالِئُهَا حَتَّى أُعَرِّسَ بَعْدَ مَا	يَكُونُ سُحَيْرًا أَوْ بُعَيْدَ فَأَهْجَعَا
إِذَا خِفْتُ أَنْ تُرْوَى عَلَيَّ رَدَدْتُهَا	وَرَاءَ التَّرَاقِي خَشْيَةً أَنْ تَطَلَّعَا
وَجَشَّمَنِي خَوْفُ ابْنَ عَفَّانَ رَدَّهَا	فَثَقَّفْتُهَا حَوْلًا جَرِيدًا وَمَرْبَعَا
وَقَدْ كَانَ فِي نَفْسِي عَلَيْهَا زَيَادَةٌ	فَلَمْ أَرَ إِلَّا أَنْ أُطِيعَ وَأَسْمَعَا

وقد ذكر ابن قتيبة أن الشعر المتكلف له أمارات لا تخفى على جهابذة نقاده، فقال : « والمتكلّف من الشعر وإن كان جيّدا محكما فليس به خفاء على ذوي العلم، لتبيّنهم فيه ما نزل بصاحبه من طول التفكُّر، وشدَّة العناء، ورشح الجبين، وكثرة الضرورات، وحذف ما بالمعاني حاجة إليه، وزيادة ما بالمعاني غنى عنه » [17]، وقد ذكر جملة من الشواهد الشعرية التي تدلُّ على التكلُّف والتمحل، وتعليل ذلك. وعطف بعد ذلك بذكر قرينة أسلوبية تدلُّ على وقوع التكلف في الشعر، فقال : « وتتبيَّن التكلّف فى الشعر أيضا بأن ترى البيت فيه مقرونا بغير جاره، ومضموما إلى غير لفقه، ولذلك قال عمر بن لجإ لبعض الشعراء: أنا أشعر منك، قال: وبم ذلك؟ فقال: لأني أقول البيت وأخاه، ولأنَّك تقول البيت وابن عمّه » [18]

ويقول عنهم الجاحظ (ت255هـ) مبينا منهجهم في قول الشعر : « ومن شعراء العرب من كان يدع القصيدة تمكث عنده حولا كريتا، وزمنا طويلا، يردد فيها نظره، ويجيل فيها عقله، ويقلب فيها رأيه، اتهاما لعقله، وتتبعا على نفسه، فيجعل عقله، زماما على رأيه، ورأيه عيارا على شعره، إشفاقا على أدبه، وإحرازا لما خوله الله تعالى من نعمته، وكانوا يسمون تلك القصائد: الحوليات، والمقلّدات،

والمنقّحات، والمحكّمات، ليصير قائلها فحلا خنذيذا، وشاعرا مفلقا » [19]

وقد أشار الجاحظ في كلامه إلى عديد المفاهيم المتعلقة بالتكلف، منها :

- أن المتكلف هو من يكثر البديع في شعره كمنصور النمري ومسلم بن الوليد [20]
- والكلام الجيد والحسن هو من : " سلم من فساد التكلف " [21]
- التكلف مرادف للتزيين والتجويد [22]

يقول بشر بن المعتمر(ت210هـ) في صحيفته الشهيرة [23] التي نقلها عنه الجاحظ، مقدما نصائح لمن يريد الاشتغال بصناعة الشعر : « خذ من نفسك ساعة نشاطك وفراغ بالك وإجابتها إياك، فإن قليل تلك الساعة أكرم جوهرا، وأشرف حسبا، وأحسن في الأسماع، وأحلى في الصدور، وأسلم من فاحش الخطاء، وأجلب لكلّ عين وغرّة، من لفظ شريف ومعنى بديع، وأعلم ان ذلك أجدى عليك مما يعطيك يومك الأطول، بالكد والمطاولة والمجاهدة، وبالتكلف والمعاودة، ومهما أخطأك لم يخطئك أن يكون مقبولا قصدا، وخفيفا على اللسان سهلا، وكما خرج من ينبوعه ونجم من معدنه، وإياك والتوعّر، فإن التوعر يسلمك إلى التعقيد، والتعقيد هو الذي يستهلك معانيك، ويشين ألفاظك، (...) فإن كانت المنزلة الأولى لا تواتيك ولا تعتريك ولا تسمح لك عند أول نظرك وفي أول تكلّفك، وتجد اللفظة لم تقع موقعها ولم تصر إلى قرارها وإلى حقها من أماكنها المقسومة لها، والقافية لم تحل في مركزها وفي نصابها، ولم تتصل بشكلها، وكانت قلقة في مكانها، نافرة من موضعها، فلا تكرهها على اغتصاب الأماكن، والنزول في غير أوطانها، فإنك إذا لم تتعاط قرض الشعر الموزون، ولم تتكلف اختيار الكلام المنثور، لم يعبك بترك ذلك أحد، فإن أنت تكلفتهما ولم تكن حاذقا مطبوعا ولا محكما لشأنك، بصيرا بما عليك وما لك، عابك من أنت أقل عيبا منه، ورأى من هو دونك أنه فوقك، فإن ابتليت بأن تتكلَّف القول، وتتعاطى الصنعة، ولم تسمح لك الطباع في أول وهلة، وتعاصى عليك بعد إجالة الفكرة، فلا تعجل ولا تضجر، ودعه بياض يومك وسواد ليتلك، وعاوده عند نشاطك وفراغ بالك، فإنك لا تعدم الإجابة » [24]

فبشر بن المعتمر في النصِّ السابق يبين فيه معنى الطبع؛ الذي لا يخرج عن كون عنده: السجية والبديهة والفطرة، أما التكلُّف فهو الكد والمجاهدة والتعقيد والتوعر، ولكي يتخلص منه إلى الطبع لابد له من أوقات وهيئات معينة تمكِّنه من قول الشعر بيسر وسهولة.

أما الجاحظ فقد تكلَّم عن المتكلفين من الشعراء؛ - الذين أشار إليهم قبل ذلك - وهم عبيد الشعر كزهير والحطيئة، فرأى أنه « لولا أن الشعر قد كان استعبدهم واستفرغ مجهودهم حتى أدخلهم في باب التكلف وأصحاب الصنعة، ومن يلتمس قهر الكلام، واغتصاب الألفاظ، لذهبوا مذهب المطبوعين، الذين تأتيهم المعاني سهوا ورهوا، وتنثال عليهم الألفاظ انثيالا » [25]

فالجاحظ يرى أنَّ مزية العرب وتفوقهم على غيرهم في البيان والفصاحة والمقدرة على البيان والتبيين ترجع إلى أنهم أصحاب طبع وسجية وارتجال، يقول في هذا بعدما ذكر الأمم الأخرى كالهنود واليونانيين والفرس، وما تتميز كل أمة منهم : « وكل شيء للعرب فإنما هو بديهة وارتجال وكأنه إلهام، وليست هناك معاناة ولا مكابدة، ولا إجالة فكر ولا استعانة (...) وكانوا أميين لا يكتبون، ومطبوعين لا يتكلفون، وكان الكلام الجيد عندهم أظهر وأكثر، وهم عليه أقدر، وله أقهر، وكل واحد في نفسه أنطق، ومكانه من البيان أرفع، وخطباؤهم للكلام أوجد، والكلام عليهم أسهل، وهو عليهم أيسر من أن يفتقروا إلى تحفظ، ويحتاجوا إلى تدارس » [26]

ومعلوم أن الجاحظ هنا هو في معرض الردِّ على الشعوبية من خلال الإعلاء من قدر العرب في مقابل غيرهم من الأمم الأخرى، والعرب لأمُّيتهم وعدم تمكنهم من الكتابة والقراءة، أصبحت الشفوية هي البديل الأوحد للتعبير والإفصاح، وهي تعتمد على البديهة والارتجال، بحيث لا مكان عندهم للتروي والتفكير وإجالة النظر، فالطبع عند الجاحظ هو ذلك الاستعداد البياني للقول والتعبير دون مكابدة ولا معاناة ولا استكراه ولا اغتصاب.

ويرى المرزباني (ت384هـ) أن التكلف هو ما يناقض الطبع ويخالفه، يقول : « فأما أصحاب التكلُّف لذلك فهم يأتون منه بما ينافر الطبع، وينبو عن السمع، مثل شعر أبي حزام غالب بن الحارث العكلي » [27]، ونراه كذلك في معرض حديثه عن كلثوم بن عمرو

العتَّابي ومقارنته بالعباس بن الأحنف يقول : « ولم أر أحدا من العلماء بالشعر قط مثَّل بين العباس والعتّابي فضلا عن تقديم العتّابي عليه لتباينهما فى المذهب، وذلك أن العتّابي متكلّف والعباس يتدفَّق طبعا؛ وكلام هذا سهل عذب، وكلام ذاك متعقّد كزّ، ولشعر هذا ماء ورقة وحلاوة، وفي شعر ذاك غلظ وجساوة [28] » [29]

ويقول المرزوقي (ت 421هـ) مبينا علامات الصنعة في الشعر فيقول: « ومتى جُعِلَ زِمامُ الاختيار بيد التعمُّل والتكلُّف، عاد الطبع مستخدَما متملَّكا، وأقبلتِ الأفكار تستحملُهُ أثقالَها، وتردِّده في قبول ما يؤدِّيه إليها، مطالبةً له بالإغراب في الصنعة، وتجاوزِ المألوفِ في البدعة، فجاء مؤدَّاه وأثرُ التكلُّف يلوح على صفحاته، وذلك هو ((المصنوع)) » [30]

فالمصنوع من الشعر عند المرزوقي - إذن - هو ما كان منوطا بالتكلف والتمحُّل، بحيث يفقد الطبع- الذي يملكه صاحبه – دوره في الصناعة الشعرية، فيصبح متحكَّماً لا متحكِّماً، ومفعولاً به لا فاعلاً، بحيث تغدو الأفكار مقحمة تحاصر الطبع وتمدُّه بما لا يحتمله، فيظهر الشعر نابياً قلقاً، ظاهر الغرابة، متجاوزا للمعهود والمعروف، كأنه بدعة تضاهي الشائع والمتداول إلى غيره.

وينقل ابن بسام عن ابن شهيد الأندلسي (ت426هـ) قوله : « وإصابة البيان لا يقوم بها حفظ كثير الغريب، واستيفاء مسائل النحو، وإنما يقوم بها الطبع مع وزنه من هذين: النحو والغريب؛ ومقدار طبع الإنسان إنما يكون على مقدار تركيب نفسه مع جسمه، فمن كانت نفسه في أصل تركيبه مستولية على جسمه، كان مطبوعا روحانيا، يطلع صور الكلام والمعاني في أجمل هيئاتها، وأروق لبساتها؛ ومن كان جسمه مستوليا على نفسه - من أصل تركيبه - والغالب على حسه، كان ما يطلع من تلك الصور ناقصا من الدرجة الأولى في الكمال والتمام وحسن الرونق والنظام، فمن كانت نفسه المستولية على جسمه فقد تأتي منه في حسن النظام، صور رائقة من الكلام، تملأ القلوب، وتشعف النفوس » [31]

فابن شهيد يرتب التَّمكن من ناصية الأدب والبيان على امتلاك الطبع، ثم يصقل ذلك الطبع بالعلوم اللغوية المساعدة ككثير الغريب ومسائل النحو، ثم إنه راح يربط بين التركيبة الإنسانية واستعدادها لقبول ما يأتي إليها، فالمطبوع هو من غلبت روحه على جسده، وهذا يأتيه الكلام والمعاني في أجمل شكل وأروع صورة (تملأ القلوب وتشغف النفوس) وأما من غلب جسده كان في كلامه ومعانيه من النقص بقدر هذه الغلبة، ولهذا يأتي دون كمال وتمام صاحب الطبع، وهذا التفسير كما يقول إحسان عباس قد تفرد به ابن شهيد، فليس للنقاد سابق تخريج مثله، فيقول في ذلك : « ونظرية أبي عامر في الطبع المؤيد بالثقافة (اللغوية والنحوية) ليست جديدة علينا، ولكن تفسير الطبع بأنه غلبة النفس على الجسم لم يرد عند المشارقة » [32]، ولكن القاضي الجرجاني قد أشار قبله لفكرة اختلاف الشعر لاختلاف الطبائع والأخلاق، يقول مقررا هذه الفكرة : « وقد كان القومُ يختلفون في ذلك، وتتباينُ فيه أحوالهم، فيرقّ شعرُ أحدهم، ويصلُب شعرُ الآخر، ويسهل لفظُ أحدهم، ويتوعّر منطقُ غيره؛ وإنما ذلك بحسَبِ اختلاف الطبائع، وتركيب الخلْق؛ فإن سلامةَ اللفظ تتبعُ سلامة الطبع، ودماثة الكلام بقدر دماثة الخِلقة. وأنت تجدُ ذلك ظاهراً في أهل عصرك وأبناء زمانك، وترى الجافي الجِلْف منهم كزَّ الألفاظ، معقّد الكلام، وعْر الخطاب؛ حتى إنك ربما وجدتَ ألفاظه في صوته ونغمته، وفي جرْسه ولهجته » [33]، ولهذا نراه يقول بعدما ساق أبياتا لأبي تمام في الغزل [34] :

دَعْنِي وَشُرْبَ الهَوَى يَا شَارِبَ الكَاسِ	فَإِنَّنِي لِلَّذِي حَسَيْتَهُ حَاسِي
لَا يُوحِشَنَّكَ مَا اسْتَعْجَمْتَ مِنْ سَقَمِي	فَإِنَّ مِنْزَلَهُ مِنْ أَحْسَنِ النَّاسِ
مِنْ قَطْعِ أَلْفَاظِهِ تَوْصِيلُ مَهْلَكَتِي	وَوَصْلُ أَلْحَاظِهِ تَقْطِيعُ أَنْفَاسِي
مَتَى أَعِيش بِتَأْمِيلِ الرَّجَاءِ إِذَا	مَا كَانَ قَطْعُ رَجَائِي فِي يَدَيْ يَاسِي

« فلم يخْل بيت منها من معنى بديع وصنعة لطيفة؛ طابق وجانس، واستعار فأحسن، وهي معدودة في المختار من غزَله. وحقّ لها؛ فقد جمعت على قصرِها فنوناً من الحُسن، وأصنافاً من البديع » [35] ثم إنه أورد أبياتا أخرى للصمة بن عبد الله القشيري[36]:

أَقُولُ لِصَاحِبِي وَالعِيسُ تَهْوِي	بِنَا بِيْنَ المنيفَةِ فَالضِّمَارِ
تَمَتَّعْ مِنْ شَمِيمِ عَرَارِ نَجْدٍ	فَمَا بَعْدَ العَشِيَّةِ مِنْ عَرَارِ
أَلَا يَا حَبَّذَا نَفَحَاتُ نَجْدٍ	وَرَيَّا رَوْضِهِ غِبَّ القِطَارِ
وَعَيْشُكَ إِذْ يَحُلُّ القُومُ نَجْداً	وَأَنْتَ عَلَى زَمَانِكَ غَيْرُ زَارِ
شُهُورٌ يَنْقَضِينَ وَمَا شَعَرْنَا	بِأَنْصَافٍ لَهُنّ وَلَا سِرَارِ
فَأَمَّا لَيْلُهُنَّ فَخَيْرُ لَيْلٍ	وَأَقْصَرُ مَا يَكُونُ مِنَ النَّهَارِ

وعقَّب عليها بقوله : « فهو كما تراه بعيد عن الصنعة، فارغ الألفاظ، سهل المأخذ، قريب التناول » [37]

ويرى أبو هلال العسكري (ت395هـ) أنَّ التكلف هو« طلب الشيء بصعوبة، للجهل بطرائق طلبه بالسهولة، فالكلام إذا جُمِعَ وطُلِبَ بتعب وجهد، وتُنُولِتْ ألفاظه من بُعْدٍ فهو متكلُّف » [38]، ويأتي كذلك عنده بمعنى استعمال الغريب في الشعر، فعن غلمان بن ميثم: « قال: قيل للسيد: ألا تستعمل الغريب في شعرك؟ فقال: ذاك عيٌّ في زماني، وتكلّف ميّ لو قلته، وقد رزقت طبعا واتّساعا في الكلام، فأنا أقول ما يعرفه الصغير والكبير، ولا يحتاج إلى تفسير » [39]، ويأتي كذلك عنده بمعنى خروج الكلام بمشقة وعسرٍ، يقول : « والكلام إذا خرج في غير تكلُّف وكد وشدَّة تفكُّر وتعمُّل كان سلسا سهلا، وكان له ماء ورواء ورقراق » [40]

ولم يخرج أبو إسحاق الحصري (ت453هـ)عن مذهب من سبقوه في توصيف حقيقة الطبع والصنعة، وذلك في قوله : « والكلام الجيد الطبع مقبول فى السمع، قريب المثال، بعيد المنال، أنيق الديباجة، [رقيق الزجاجة] ، يدنو من فهم سامعه، كدنوُّه من وهم صانعه، والمصنوع مثقّف الكعوب، معتدل الأنبوب، يطِّرد ماء البديع على جنباته، ويجول رونق الحسن في صفحاته، كما يحول السّحر في الطّرف الكحيل والأثر فى السيف الصقيل وحمل الصانع شعره على الإكراه في التعمل وتنقيح المباني دون إصلاح المعاني يعفى آثار صنعته، ويطفىء أنوار صيغته، ويخرجه إلى فساد التعسف، وقبح التكلف؛ وإلقاء المطبوع بيده إلى قبول ما يبعثه هاجسه، وتنفثه وساوسه، من غير إعمال النظر، وتدقيق الفكر، يخرجه إلى حدّ المشتهر الرث، وحيّز الغث؛ وأحسن ما أجرى إليه، وأعوّل عليه، التوسط بين الحالين، والمنزلة بين المنزلتين، من الطبع والصنعة » [41]

أما ابن رشيق (ت 463هـ) في تعرضه لقضية الطبع والصنعة، والتي خصها في عمدته ببابٍ، فقد استهلها بالكلام عن حقيقة كل واحد منهما، وذلك في قوله : « ومن الشعر مطبوع ومصنوع، فالمطبوع هو الأصل الذي وضع أولاً، وعليه المدار، والمصنوع وإن وقع عليه هذا الاسم فليس متكلفاً تكلف أشعار المولدين، لكن وقع فيه هذا النوع الذي سموه صنعة من غير قصد ولا تعمل، لكن بطباع القوم عفواً، فاستحسنوه ومالوا إليه بعض الميل، بعد أن عرفوا وجه اختياره على غيره، حتى صنع زهير الحوليات على وجه التنقيح والتثقيف » [42]

فإذا كان ابن رشيق يميل إلى الطبع ويجعله الأصل، فإنه يفرق في الصنعة بين الشعر المتكلف تكلف المولدين، وبين الشعر المنقح والمثقف، والذي هو على مذهب زهير ومن سار على نهجه، فمن هذا النوع ما نجده في حوليات زهير الذي كان « يصنع القصيدة ثم يكرر نظره فيها خوفاً من التعقب بعد أن يكون قد فرغ من عملها في ساعة أو ليلة، وربما رصد أوقات نشاطه فتباطأ عمله لذلك » [43]

وهو يرى أن العرب « لا تنظر في أعطاف شعرها بأن تجنس أو تطابق أو تقابل، فتترك لفظة للفظة، أو معنى لمعنى، كما يفعل المحدثون، ولكن نظرها في فصاحة الكلام وجزالته، وبسط المعنى وإبرازه، وإتقان بنية الشعر، وإحكام عقد القوافي وتلاحم الكلام بعضه ببعض » [44]، ولهذا عدَّ النقاد أبيات الحطيئة - الذي ينتمي فنيا إلى مذهب زهير - من الحسن والإجادة وتناسق الكلام ببعضه مع بعض، وذلك في قوله [45] :

فَلَا وَأَبِيكَ مَا ظَلَمَتْ قُرَيْعٌ	بِأَنْ يَبْنُوا المكَارِمَ حَيْثُ شَاءُوا
وَلَا وَأَبِيكَ مَا ظَلَمَتْ قُرَيْعٌ	وَلَا بَرِمُوا لِذَاكَ وَلَا أَسَاءُوا
بعثرة جارهم أن يجبروها	فَيَغْبُرَ حوله نَعَمٌ وَشَاءُ
فَيَبْنِي مَجْدَهَا وَيُقِيمَ فِيهَا	وَيَمْشِي إِنْ أُرِيدَ بِهِ المشَاءُ
و إِنَّ الجَارَ مِثْلُ الضَّيْفِ يَغْدُو	لِوِجْهَتِهِ وإِنْ طالَ الثَّواءُ
و إِنِّي قَدْ عَلِقْتُ بِحَبْلِ قَوْمٍ	أَعَانَهُمُ على الحَسَبِ الثراءُ

فالصنعة التي نجدها في أبيات الحطيئة ليست من النوع المستقبح، فهذه الأبيات مع فصاحتها وجزالة ألفاظها نجدها محكمة متينة في نظمها وقافيتها.

وممن قابل بين مفهومي الطبع والصنعة ابن سنان الخفاجي (ت466هـ)، حيث إن التكلف عنده نقيض للطبع ، يقول : « الوصية لهما ترك التكلف والاسترسال مع الطبع » [46]

وعقد أسامة بن منقذ (ت 584هـ) بابا في كتابه أسماه : " التكلُّف والتعسُّف "، قال فيه : « وهو الاكثار من البديع كالتطبيق والتجنيس في القصد، لأنه يدل على التكلف من الشاعر لذلك وقصده إليه، وإذا كان قليلاً نسب إلى إنه طبع في الشاعر » [47]

وأما ابن الأثير (ت637هـ)، الذي اشترط في صناعة الشعر اجتماع الطبع والموهبة جميعا، وقد سار في تناوله لهذه القضية مسير من سبقه، حيث إنه لم يقدم جديدا اللهم إلا التوسع فيها وتطعيمها بالأمثلة والشواهد، ويعدُّ الطبع عنده هو الآلة التي لا غنى عنها في صناعة تأليف الكلام شعره ونثره، يقول مقررا هذه الفكرة : « وملاك هذا كلّه الطبع؛ فإنه إذا لم يكن ثمّ طبع فإنه لا تغني تلك الآلات شيئا؛ ومثال ذلك كمثل النار الكامنة في الزناد والحديدة التي يقدح بها؛ ألا ترى أنه إذا لم يكن في الزناد نار لا تفيد تلك الحديدة شيئا؟ » [48] ونجده في موضع آخر يفرق بين المتكلف وغير المتكلف، فيقول : « فإن قيل: ما الفرق بين المتكلِّف من هذا الأنواع وغير المتكلف؟ قلت في الجواب: أما المتكلف فهو الذي يأتي بالفكرة والروية، وذلك أن ينضى الخاطر في طلبه، ويبعث على تتبعه واقتصاص أثره، وغير المتكلف يأتي مستريحا من ذلك كله » [49]

وأما حازم القرطاجني في سياق مقاربته لقضية الطبع تناول مسألة تقويم وتسديد وصقل الطباع، وما لهذه العمليات من أهمية في تكوين شعرية الشاعر وتمكُّنه من هذه الصناعة، وهذا الارتباط بين الطبع والتعلم والدربة يأخذنا إلى الكلام عن مفهوم الصنعة عنده؛ التي هي عنده بوجه أو بآخر معرفة قوانين الصناعة الشعرية، التي تعين طلبة الشعر على الإجادة، ولهذا هو يؤكد على ضرورة التعلم وتلقي أصول الشعر على أصحابه، أو قل التلميذ على شيخه، ولهذا ذكر سلسلة التحمُّل والأخذ بين شعراء ما يسمى بالصنعة بقوله : « وأنت لا تجد شاعرا مجيدا منهم إلا وقد لزم شاعرا آخر المدة الطويلة، وتعلم منه قوانين النظم، واستفاد عنه الدربة في أنحاء التصاريف البلاغية، فقد كان كثيِّر أخذ الشعر عن جميل، وأخذه جميل عن هدبة بن خشرم، وأخذه هدبة عن بشر بن أبي خازم، وكان الحطيئة قد أخذ علم الشعر عن زهير، وأخذه زهير عن أوس بن حجر، وكذلك جميع شعراء العرب المجيدين المشهورين » [50]

فالتكلف عنده هو قرين التوعر، يقول : « ومن ذلك التسهُّل في العبارات وترك التكلف، والتسهل يكون بأن تكون الكلم غير متوعَّرة الملافظ والنقل من بعضها إلى بعض وأن يكون اللفظ طبقا للمعنى تابعا له جارية العبارة من جميع أنحائها على أوضح مناهج البيان والفصاحة » [51]

ومن المعاصرين يظهر لنا شوقي ضيف الذي انتقد تقسيم الشعراء إلى أصحاب الطبع وأصحاب الصنعة، بعدما أشار إلى مفهومهما كما قرره القدماء والمحدثون على السواء، حيث يرى أن الشعر يخضع للصنعة، فلا وجود للطبع أصلا إلا إذا اعتبرناه مرادفا للملكة والموهبة، فالمتأمل للشعر العربي منذ العصر الجاهلي يلمح أنه تكرار لنسق شعري سابق سواء من حيث المفردات أو الأساليب أو الصور،

وهذا ما قرره امرؤ القيس في ذكره لشخص ابن خذام - الذي كان قبله، ولا يعرف عنه ولا عن شعره إلا ما جاء في هذا البيت – والذي فيه إقرار بأنه يسلك في الوقوف على الأطلال مسلك المذكور، حين يقول [52] :

عُوجَا عَلَى الطَلَلِ الْمُحِيلِ لَعَلَّنَا	نَبْكِي الدِّيَارَ كَمَا بَكَى ابْنُ خِذَامِ

ويقول زهير بن أبي سلمى ذاكرا أنه والشعراء معه ما هم إلا معيدين كلام غيرهم، فيقول[53]:

مَا أَرَانَا نَقُولُ إلا مُعَارًا	أَوْ مُعَادًا مِنْ لَفْظِنَا مَكْرُورَا

ويؤكد عنترة ذلك بقوله أن الشعراء ما تركوا شيئا إلا تناولوه، بقوله [54] :

هَلْ غَادَرَ الشُّعَرَاءُ مِنْ مُتَرَدَّمِ؟	أَمْ هَلْ عَرَفْتَ الدَّارَ بَعْدَ تَوَهُّمِ؟

يقول شوقي ضيف مبررا رأيه هذا : « إن من يرجع إلى العصر الجاهلي يجد الشعر خاضعًا لتقاليد ورسوم كثيرة يتوارثها الشعراء؛ سواء في ألفاظه ومعانيه، أم في أوزانه وقوافيه، بحيث لا يستطيع مطلقًا أن يذعن لفكرة الطبع وما يُطوى فيها من أن الشعر فطرة وإلهام؛ فقد كان الجاهليون يصنعون شعرهم صناعة ويعملونه عملًا، وهم في أثناء هذه الصناعة والعمل يخضعون لمصطلحات ورسوم كثيرة » [55]، فالشاعر أساسا يمتاز عن غيره بالموهبة أو ما يسمى بالاستعداد الفطري أو القابلية الفنية، الذي يمكِّنه من قول الشعر، ولكن هذه الملكة لا تلبث أن تصبح صناعة وممارسة من طرف صاحبها، حيث تتجلى فيه تقاليد الشعرية العربية الموروثة التي أشرنا إليها تجليا واضحا ودقيقا، هذا من ناحية ومن ناحية ثانية أن العرب كانوا لا ينظرون إلى الشعر إلا باعتباره صناعة كباقي الصناعات الأخرى، بل يصل شوقي ضيف إلى اعتبار شعراء الجاهلية كلهم أهل صنعة فيقول : « هذا كله دفعني إلى أن أرفض فكرة تقسيم الشعراء إلى أصحاب طبع وأصحاب صنعة، حتى في العصر الجاهلي، إذ كان الشعراء جميعًا أصحاب صنعة وجهد وتكلف؛ فقد حدثنا الرواة أن منهم من كان ينظم القصيدة في حول كامل، وليس من شك في أن من يتابع الشاعر الجاهلي يحس إحساسًا واضحًا بأنه كان يقبل على صناعته إقبال الصانع على حرفته؛ فهو يوفر فيها رسومًا وتقاليد كثيرة » [56]

وهنا قضية شديدة الصلة بالتكلف، وهي وجود الحافز أو المقتضى لقول الشعر، فقد أُثر عن كثير من الشعراء إقرارهم بأن القول الشعري يدور مع موضوعه عندهم وجودا وعدما، فكلما كان الموضوع المحفز على قول الشعر تفتقت الموهبة وسال بحر الشعر، وكلما فُقد الموضوع والمقتضى الداعي، جفت منابع الشعر والإلهام، وهذه الدوافع تختلف باختلاف المؤثرات النفسية والعاطفية والاجتماعية للشاعر، فمنهم من تحفزه ديار المحبوبة وتذكر عهده بها، ومنهم من يحفزه العطاء والنوال، ومنهم من يحفزه الخوف والرهبة، وشواهد ذلك كثيرة منها ما قاله الفرزدق لما مدح هشاما فأجازه بأربعة آلاف، « فقيل له: إنك لا تمدح المهلّب، فقال: أما علمتم أن اللّها تفتح اللّها [57] » [58]، وقوله كذلك لما ذُكِرَ له إحسان الكميت بن زيد في هاشمياته ومدح آل البيت : « وجد آجُرًّا وجِصًّا [59] فبنى » [60] ومنها ما قيل لكثيِّر من أشعر العرب فاضل بينهم بدوافع كل واحد منهم لقول الشعر، فقال : « امرؤ القيس إذا ركب، وزهير إذا رغب، والنابغة إذا رهب، والأعشى إذا شرب » [61]، وأوضح من ذلك ما قاله بنو تميم للشاعر سلامة بن جندل : « مجِّدنا بشعرك، فقال: افعلوا حتَّى أثني » [62]، وقول عمرو بن معدي كرب كذلك [63] :

فَلَوْ أَنَّ قَوْمِي أَنْطَقَتْنِي رِمَاحُهُمْ	نَطَقْتُ وَلَكِنَّ الرِّمَاحَ أَجَرَّتِ

والأمر نفسه عند نصيب بن رباح لما قيل له: « هرم شعرك؟ فقال: ما هرم شعري، ولكن هرم الجود والكرم، لقد مدحت الحكم بن المطّلب بقصيدة فأعطاني أربعمائة شاة وأربعة آلاف دينار ومائة ناقة » [64]، ومعنى هذا الرد صاغه أبو الهفَّان شعرا، لما قال له أحدهم : ما لك لا تمدحني؟ فقال [65] :

لِسَانُ الشُّكْرِ تُنْطِقُهُ العَطَايا	ويَخْرَسُ عند مُنْقَطَعِ النّوالِ

وقد أشار إلى ذلك ابن قتيبة بوضوح في قوله : « وللشعر دواع تحث البطيء وتبعث المتكلّف، منها الطمع ومنها الشوق، ومنها

الشراب، ومنها الطرب، ومنها الغضب »[66]، ثم أتبع حكمه هذا بطائفة من الشواهد - التي تشبه ما سبق إيراده- منها ما « قيل للحطيئة، أيُّ الناس أشعر؟ فأخرج لسانا دقيقا كأنَّه لسان حيّة، فقال: هذا إذا طمع »[67] وقول « عبد الملك بن مروان لأرطاة بن سهيّة: هل تقول الآن شعرا؟ فقال: (كيف أقول وأنا) ما أشرب ولا أطرب ولا أغضب، وإنما يكون الشعر بواحدة من هذه »[68]

وهنا لابد من القول : إن إنشاد الشعر دون رغبة أو رهبة، لهو دليل واضح على شاعرية صاحبه وقربه من الطبع، وذلك لأنه لا يحتاج إلى محفز حتى يقول الشعر، فالموهبة عنده أصيلة، وهذا التخريج يدفعنا إلى قضية أخرى، وهي ما يسمى : بـ " النَّفث " وهو ما يصدر عن الشاعر حين يمتلئ صدره بلواعج عاطفية ووجدانية حبيسة، فتفيض نفسه بالشعر، وشاهد ذلك ما قاله « معاوية لصحار العبدي: ما هذا الكلام الذي يظهر منكم؟ قال: شيء تجيش به صدورنا فتقذفه على ألسنتنا »[69]، وهذا البوح - إن صحَّ التعبير - لا يعرف خصوصية معينة، بل هو يكون من كل الناس إذا توفرت الدواعي، ودليل ذلك ما قيل لعبيد الله بن عبد الله بن عتبة بن مسعود- أحد الفقهاء السبعة – « كيف تقول الشعر مع الفقه والنسك؟ فقال: « لا بد للمصدور من أن ينفث »[70]

وهناك حالة ينقطع فيها الشاعر على القول لعظم الوارد عليه سواء بمصيبة أو بفرح أو بعشق، كما هو الحال عند العرفاء من الصوفية، الذين يصل بهم الحال في كثير من الأحيان إلى الخرس، وشبيه هذا ما قاله حسان بن ثابت لما « قيل له : ما بالك لم ترث رسول الله ﷺ؟ فقال: جلَّت المصيبة عن المرثية »[71]

من خلال مطالعة آراء النقاد المختلفة نجد أنَّ الكثرة منهم تغلب الطبع على التكلف والصنعة، والشواهد والأقوال والتفسيرات التي أتتنا عنهم تؤكد هذا الأمر، فالجاحظ على سبيل المثال يقول مبينا فضل الطبع على الصنعة :« ومدار اللائمة ومستقر المذمة حيث رأيتَ بلاغةً يخالطها التكلف، وبيانا يمازجه التزيد »[72]، ولقد تنبَّه -كما غيره – إلى وصف المتكلف « ولم أرهم يذمون المتكلف للبلاغة فقط، بل كذلك يرون المتظرف والمتكلف للغناء، ولا يكادون يضعون اسم المتكلف إلا في المواضع التي يذمونها »[73]

وقد سار القاضي الجرجاني على ما سار عليه الجاحظ فقال : « فإن رام أحدُهم الإغراب والاقتداءَ بمَن مضى من القدماء لم يتمكن من بعض ما يرومه إلا بأشدّ تكلّف، وأتم تصنُّع؛ ومع التكلف المقْت، وللنفس عن التصنُّع نُفْرة، وفي مفارقة الطبع قلةُ الحلاوة وذهاب الرونق، وإخلاقُ الديباجة »[74] ويقول ابن وهب أيضا في هذا المعنى : « فإن التكلف إذا ظهر في الكلام هجنه، وقبح موقعه؛ وحسبك من ذم التكلف أن الله سبحانه أمر رسوله - ﷺ - بالتبرؤ منه فقال: ﴿ قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ ﴾[ص : 86] »[75]

خَاتِمَةٌ :

من خلال ما سبق يمكن القول إن الشعر العربي في عصوره الأولى، من الجاهلية وحتى معظم العصر الإسلامي قد كان الطبع هو المسيطر على أصحابه، فرأينا فيهم البديهة والارتجال، ولعلَّ هذه الفترة هي الأنسب لبروز الطبع على الصنعة والتكلف، لصبغتها الشفوية التي تمثل طور البداوة التي كان يعيشها العرب، ولكن الأمر نجده قد اختلف مع تغير أحوال الناس، وأخذهم بحظ وافر من الحضارة، ومن الأمية والشفوية إلى القراءة والكتابة، بحيث أصبح التكلف والصنعة في الشعر هي السلعة الرائجة والعاكسة للبيئة العربية ومستجداتها وثقافتها وطبيعة الإنسان فيها، هذا من جهة، ومن جهة ثانية بروز نزعة تجديدية في هذا الشعر من حيث الشكل والمضمون، حيث ظهرت الأوزان الخفيفة والإيقاعات المتراقصة، والاشتغال على الزخرفة اللفظية وتكلف الصور البيانية وابتكار المعاني الكلامية والفلسفية. وغير ذلك مما يحسب على التكلف والصنعة.

ولعل أبرز النتائج المتوصل إليها هي كالآتي :

***/** لقد اختلف النقاد في تحديد ماهية الطبع اختلاف تنوع، بحيث أنه قد وردت عنهم كثير من التحديدات التي تجتمع معظمها في اعتبار الطبع هو تلك الملكة الفطرية والاستعداد والاقتدار على قول الشعر دون تكلف ولا تمحل .

*/ أن المطبوعين من الشعراء يتفاوتون في ذلك على حسب الموضوعات التي يبرزون فيها، فهناك المطبوع القوي في غرض، والمفحم الضعيف في غرض آخر، وهذه القضية لها علاقة بفكرة الفحولة.

*/ الطبع له علاقة وطيدة بالصناعة الشعرية، إذ به يصبح الشاعر مجيدا متحكما في أدواته، قادرا على الإبداع والتميز.

*/ لقد تنوعت توصيفات النقاد لمعنى الصنعة والتكلف؛ حيث إنهم انتبهوا منذ العصر الجاهلي إلى بروز هذا الاتجاه، ممثلا في أوس بن حجر وزهير ومن جاء بعدهما.

*/ الشعر المصنوع له أمارات وقرائن لا تخفى على أصحاب الصناعة الشعرية العارفين بها، حيث ذكروا لذلك الشواهد الكثيرة في كتبهم، مميزين بين المطبوع والمصنوع من الشعر.

*/ التكلف نوعان: منه ما هو مستملح مثقف مصقول جارٍ على السليقة العربية، لا تجد فيه تمحلا ولا تعمُّلا، كأشعار زهير ومن سار على منهجه، وهناك التكلف الذي يدخل في مسمى التصنع؛ الذي يظهر الشعر فيه قلقا نابيا، بعيدا عن المعهود من شعر فحول الشعراء، كأشعار كثير من المولدين.

*/ قضية الحافز والمقتضى لقول الشعر له علاقة مباشرة بالتكلف والصنعة، فما دام الشاعر لا يقول شعرا إلا إذا كان هناك سبب يدفع لذلك رغبة أو رهبة أو حبا ... فهو بعيدٌ عن الطبع والسجية إلا في النادر القليل.

الهَوَامِشُ وِالإِحَالَاتُ :

[1]- علي بن عبد العزيز الجرجاني، الوساطة بين المتنبي وخصومه، تح: مُحَمَّد أبو الفضل إبراهيم وعلي مُحَمَّد البجاوي، المكتبة العصرية، بيروت، لبنان، ط01، 2006، ص 23.

[2]- أبو مُحَمَّد عبد الله بن قتيبة، الشعر والشعراء، ج01، تح: أحمد مُحَمَّد شاكر، دار المعارف، القاهرة، مصر، ط02، 1982، ص 90.

[3]- المصدر نفسه، ج01، ص 93- 94.

[4]- المصدر نفسه، ج01، ص 94.

[5]- أبو علي أحمد بن مُحَمَّد المرزوقي، شرح ديوان الحماسة، ج01، تح: أحمد أمين وعبد السلام هارون، دار الجيل، بيروت، لبنان، ط01، 1991، ص 12.

[6]- علي بن عبد العزيز الجرجاني، الوساطة بين المتنبي وخصومه، مصدر سبق ذكره، ص31.

[7]- المصدر نفسه، ص 36.

[8]- أبو هلال الحسن بن عبد الله العسكري، كتاب الصناعتين الكتابة والشعر، تح : علي مُحَمَّد البجاوي ومُحَمَّد أبو الفضل إبراهيم، المكتبة العصرية، بيروت، لبنان، ط01، 1952، ص 58.

[9]- حازم القرطاجني، منهاج البلغاء وسراج الأدباء، تح: مُحَمَّد الحبيب بن الخوجة، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، ط3، 1986، ص 199.

[10]- المصدر نفسه، ص 40.

[11]- المصدر نفسه، ص 40 -41.

[12]- المصدر نفسه، ص 40.

[13]- مُحَمَّد زغلول سلام، تاريخ النقد الأدبي والبلاغة حتى القرن الرابع الهجري، منشأة المعارف، الإسكندرية، مصر، دط، 1982، ص 51.

[14]- شوقي ضيف، الفن ومذاهبه في الشعر العربي، دار المعارف، القاهرة، مصر، ط12، دت، ص 07.

[15]- أبو مُحَمَّد عبد الله بن قتيبة، الشعر والشعراء، ج01، مصدر سبق ذكره، ص78.

[16]- أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ، البيان والتبيين، ج02، تح : عبد السلام مُحَمَّد هارون، مكتبة الخانجي، القاهرة، مصر، ط07، 1998، ص 12.

[17]- أبو مُحَمَّد عبد الله بن قتيبة، الشعر والشعراء، ج01، مصدر سبق ذكره، ص 88.

[18]- المصدر نفسه، ج01، ص 90.

[19]- أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ، البيان والتبيين، ج02، مصدر سبق ذكره، ص09.

[20]- يُنظر : المصدر نفسه، ج01، ص 51.

[21]- يُنظر : المصدر نفسه، ج02، ص 08.

[22]- يُنظر : المصدر نفسه، ج02، ص 18.

[23]- يعدُّ بشر بن المعتمر من أوائل من وصلتنا عنهم آراء نقدية مدونة، كما يذهب إلى ذلك كثير من النقاد، يُنظر : أحمد مطلوب، اتجاهات النقد الأدبي في القرن الرابع الهجري، وكالة المطبوعات، الكويت، ط01، 1973، ص22.

[24]- أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ، البيان والتبيين، ج01، مصدر سبق ذكره، ص 135 – 138.

[25]- المصدر نفسه، ج02، المصدر نفسه، ص 13.

[26]- المصدر نفسه، ج03، ص 28.

[27]- أبو عبد الله مُحَمَّد المرزباني، الموشح في مآخذ العلماء على الشعراء، تح : مُحَمَّد حسين شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط01، 1995، ص 394.

[28]- الجساوة: اليباس.

[29]- أبو عبد الله مُحَمَّد المرزباني، الموشح في مآخذ العلماء على الشعراء، مصدر سبق ذكره، ص 333.

[30]- أبو علي أحمد بن مُحَمَّد المرزوقي، شرح ديوان الحماسة، ج01، مصدر سبق ذكره، ص 12.

[31]- أبو الحسن علي بن بسام الشنتريني، الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، ج01، تح : إحسان عباس، الدار العربية للكتاب، ليبيا / تونس، ط01، 1981، ص 131 – 232.

[32]- إحسان عباس، تاريخ النقد الأدبي عند العرب، دار الثقافة، بيروت، لبنان، ط04، 1983، ص 479.

[33]- علي بن عبد العزيز الجرجاني، الوساطة بين المتنبي وخصومه، مصدر سبق ذكره، ص 24 – 25.

[34]- المصدر نفسه، ص 37.

[35]- الصفحة نفسها.

[36]- المصدر نفسه، ص 37 -38.

[37]- المصدر نفسه، ص 38.

[38]- أبو هلال الحسن بن عبد الله العسكري، كتاب الصناعتين الكتابة والشعر، مصدر سبق ذكره، ص 44.

[39]- المصدر نفسه، ص 61.

[40]- المصدر نفسه، ص 171.

[41]- أبو إسحاق إبراهيم بن علي الحُصري، زهر الآداب وثمر الألباب، ج03، تح : زكي مبارك، دار الجيل، بيروت، لبنان، ط04، ص 395- 396.

[42]- ابن رشيق القيرواني، العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده، ج01، تح : مُحَمَّد محي الدين عبد الحميد، دار الجيل، بيروت، لبنان، ط05، 1981، ص 129.

[43]- الصفحة نفسها.

[44]- الصفحة نفسها.

[45]- جرول بن أنس (الحطيئة)، الديوان، اعتنى به وشرحه: حمدو طماس، دار المعرفة، بيروت، لبنان، ط02، 2005، ص10-11.

[46]- أبو محمد عبد الله بن سنان الخفاجي، سر الفصاحة، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط01، 1982، ص 290.

[47]- أبو المظفر مجد الدين أسامة بن منقذ، البديع في نقد الشعر، تح : أحمد أحمد بدوي وحامد عبد المجيد، وزارة الثقافة والإرشاد القومي، الجمهورية العربية المتحدة، دط، دت، ص 163.

[48]- أبو الفتح ضياء الدين بن الأثير، المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، ج01، تح : محمد محي الدين عبد الحميد، المكتبة العصرية للطباعة والنشر، بيروت، لبنان، 1420هـ، ص27.

[49]- المصدر نفسه، ج02، ص 269.

[50]- حازم القرطاجني، منهاج البلغاء وسراج الأدباء، مصدر سبق ذكره، ص 27.

[51]- المصدر نفسه، ص 223.

[52]- امرؤ القيس، الديوان، اعتنى به وشرحه : عبد الرحمن المصطاوي، دار المعرفة، بيروت، لبنان، ط02، 2004، ص 151.

[53]- هذا البيت هو مما أُثر عن زهير في كتب المحدثين، إلَّا أنني بعد البحث عنه لم أجد من القدامى ذكره تقريبا إلا ابن عبد ربه منسوبا إلى كعب ابنه، ينظر: العقد الفريد، ج06، دار الكتب العلمية، بيروت، ط01، 1404هـ، ص186.

[54]- الخطيب التبريزي، شرح ديوان عنترة، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان، ط01، 1993، ص147.

[55]- شوقي ضيف، الفن ومذاهبه في الشعر العربي، مرجع سبق ذكره، ص 08.

[56]- الصفحة نفسها.

[57]- اللها بالضم جمع لهوة بالضم العطية دراهم كانت أو غيرها، واللها بالفتح واللهوات، واللهيات أيضا جمع لهاة بالفتح، وهي الهنة المطبقة في أقصى سقف الفم.

[58]- محمد بن قاسم الحنفي، روض الأخيار المنتخب من ربيع الأبرار، دار القلم العربي، حلب، سوريا، ط01، 1423هـ، ص 426.

[59]- الجص: بكسر الجيم وفتحها ذلك الذي يطلى به البناء.

[60]- أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ، البيان والتبيين، ج04، مصدر سبق ذكره، ص 299.

[61]- ابن رشيق القيرواني، العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده، ج01، مصدر سبق ذكره، ص 95.

[62]- أبو محمد عبد الله بن قتيبة، عيون الأخبار،ج03، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط01، 1986، ص 184.

[63]- عمرو بن معدي كرب الزبيدي، الديوان، مطبوعات مجمع اللغة العربية ، دمشق، سوريا، ط02، 1985، ص73.

[64]- محمد بن قاسم الحنفي، روض الأخيار المنتخب من ربيع الأبرار، مرجع سبق ذكره، ص 426.

[65]- الراغب الأصفهاني، محاضرات الأدباء ومحاورات الشعراء والبلغاء، ج01، شركة دار الأرقم بن أبي الأرقم، بيروت، لبنان، ط01، 1420هـ، ص459.

[66]- أبو محمد عبد الله بن قتيبة، الشعر والشعراء، ج01، مصدر سبق ذكره، ص 78.

[67]- المصدر نفسه، ج01، ص79.

[68]- المصدر نفسه، ج01، ص 80.

[69]- أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ، البيان والتبيين، ج04، مصدر سبق ذكره، ص46.

[70]- الصفحة نفسها.

[71]- أبو منصور عبد الملك بن محمد الثعالبي، التمثيل والمحاضرة، تح: عبد الفتاح محمد الحلو، الدار العربية للكتاب، بيروت، لبنان، ط02، 1981، ص 185.

[72]- المصدر نفسه، ج01، ص 13.

[73]- المصدر نفسه، ج02، ص18.

[74]- علي بن عبد العزيز الجرجاني، الوساطة بين المتنبي وخصومه، مصدر سبق ذكره، ص 25.

[75]- أبو الحسين إسحاق بن إبراهيم بن سليمان بن وهب، البرهان في وجوه البيان، تح : حفني محمد شرف، مطبعة الرسالة، القاهرة، مصر، 1969، ص 162.